

التصوير الفني في القرآن

لؤله الأستاذ سبر فطب

للأستاذ عبد المنعم خلاف

نقد وتعليق

هو كتاب شاعر نثر ناقد ، زاول الشعر والنثر والنقد ، ونجح في ذلك كله كثيراً من النجاح .

ولا بد لمن يتناول البحث في القرآن من جانب فنه البياني أن يكون قد زاول التعبير الفني ونجح فيه واتصل بفنونه اتصالاً وثيقاً ، وأن يكون كذلك له ذوق وحكم وتقليب نظر في أجواء البيان الرفيع .

ولست أقدم « المؤلف » للقراء ، فهم يعرفونه ، بل أقدم كتابه هذا الذي هو لا شك نظرة واسعة لبيان القرآن جاوزت حدود تلك النظرات القديمة المعقدة الضيقة التي كانت في أكثرها تتخذ « وحدة » القياس البياني في الغالب من العلاقات والتخييلات الجزئية بين أجزاء الجملة . فتنظر لوضع اللفظ وحده في وصلته بالحقبة والتخييل ، قليلاً ما تنتهضه إلى الصورة الجامعة وملابساتها وما حولها من الظلال والرموز .

ومن حق المؤلف أن يحظى من النقد بالفتيش والتتبع لما يكتبه من أدب حر ، لأنه هو يمتنى نفسه في التفتيش والتتبع لما يكتب المؤلفون ، وتقديمه للناس وتعريفهم به . وهو عمل متعب مشكور ، له أثره في تعريف الكاتبين إلى أنفسهم أولاً ، وفي وجود صدى لا بد منه لآثارهم . وفي إثارة الأذهان نحو النقد والحكم على الآثار الأدبية ومعرفة أهدافها وتبيين آثارها وأساليبها وسماتها ، وفي التاريخ لها أولاً بأول ..

والذي أستطيع أن أقوله بسرعة عن هذا الكتاب : إنه ينزل إلى مكان كريم من مكتبة القرآن ، لأنه حديث جديد عميق في أسرار بيانه ، وعرض رشيق لمذهب من مذاهب الفهم والذوق للإعجاز نصيره .

وينزل كذلك إلى مكانه من مكتبة بحوث « البلاغة » والنقد

الأدبي ، لأنه ظاهرة طيبة لتحررها من النظرة الجزئية وتسديدها إلى النظرات الواسعة الكلية التي تستوفي « الجو » العام الذي صدر فيه الأثر البياني ، وتتلمس المناسبات الداخلية والخارجية حوله ، وتحلل العلاقات الكثيرة بين الكاتب والكتوب والقارئ والموضوع .

ويدخل كذلك ببعض فصوله إلى مكانه من مكتبة الأدب الفني لأنه يكشف عن صورة للقرآن في ذهن شاعر معروضة عرضاً جليلاً بأسلوب نادر دقيق التعبير مشرق الأسلوب ، له ذوق وحساسية وبيان ، لا بأسلوب « محصل » علم ، إن أصاب الفكرة فقد يخطئ التعبير ..

ويدخل كذلك إلى مكتبة « الفن » وأعني به هنا التصوير بالرشة والإزميل ، فهو يضع أمام المصورين الباحثين عن المشاهد الرائعة صوراً بيانية للوحات حية مشروحة الدقائق والتفاصيل والأضواء والظلال والأطياف والشواخص والمعاني ، يستطيعون أن يتسلوها ويتفلسفوا فيها فيجدوا متاعاً أي متاع ..

وينزل كذلك إلى مكانه من « البحث » المستقصى والتتبع والتحقيق وجمع الحلقات المفرقة عن الموضوع الواحد . كما يتجلى ذلك في مباحث « القصة في القرآن » . وهي مباحث استغرقت أكثر من ربع الكتاب وتعد موضوعاً قائماً بذاته فيه .

وقد عرض في بعض فصوله لكثير من المباحث التي تدور حول القرآن ، ولا غنى عنها لمن يريد أن يتفرد في بيانه .

غير أنني أخشى أن يكون قد أفلتت لفظة أو اثنتان من قلم المؤلف في أهم فصل من فصول الكتاب خرجت بهما فكرته الأساسية التي عنوانها في جو من المبالغة والتعميم .

ذلك أن يقرر في الفصل الذي أنشئ من أجله الكتاب أن (التصوير هو الأداة « المفضلة » في أسلوب القرآن) وأن إدراكه وسيلة إلى (إدراكنا « سر الإعجاز » في تعبير القرآن)

فإذا تجاوزنا عن الفرق بين كلمة « أسلوب » وكلمة « تعبير » وفهمنا أن الأستاذ في الغالب يريد من الكلمة الأولى معنى الكلمة الثانية ، إذ لا يخفى عليه الفرق بينهما ، وخصوصاً في القرآن ، فإننا لا نستطيع أن نتجاوز عن إطلاق كلمة « المفضلة » ولا عن

استقرأ « الصور الفنية » في القرآن وعرضها والتعليق عليها وبيان ما فيها من روعة وأسرار .

في الكتاب فصل عن « المنطق الوجداني » يتصل بالمباحث العقلية حول القرآن وأسلوب دعوته إلى الإيمان بالله الواحد وقضايا الدين . وهو فصل أثار في نفسى تعليقاً وخواطر حول بيان أساس الدين ، وهل هو الوجدان أو العقل ؟

والمؤلف يرى أنه الوجدان ، وأن الذهن ليس أوسع النافذ ولا أصدقها ولا أقربها إلى الدين .

ونظراً لخطر الموضوع وقيمته في السعوة الإسلامية والدينية الصحيحة عامة سأضطر إلى مناقشة هذه الفكرة التي صارت زعماً عاماً انتقل إلى المسلمين الذين أساس دينهم (بل أساس الدين الصحيح كله) العقل ؛ لأننى أعتقد أن المسلمين الآن بحاجة إلى أن يعلموا أن قضية الإيمان بالله الواحد كما استعرضها ودعا إليها القرآن ليست قضية « وجدانية » تأخذ من المجهول للنفس أكثر مما تأخذ من المعلوم لها ، بل هى فى أصلها ومنبتها الأول تأخذ من « المعلومات » وقيينات الحس والبداهة والحكم العقلى أكثر مما تأخذ من أى منطقة أخرى من مناطق النفس البشرية

- فليس الوطن الأول لهذه العقيدة هو الوجدان ، منطقة الانفعال والاستسلام أو الثورة ، بل موطنها هو موطن ذلك « البرق » الذهني أو العقلي الذى ينتج « حكا » يرسله إلى الوجدان فينفع له ويتقبله « ويعمده » فى طويته ويستلم له ويسير حياته على مقتضاه . هذا البرق الذى ينتج « الحكم » يستمد حيثيات أحكامه من انطباعات الصور الثابتة للكون فى النفس ومن الانفعالات الداخلية بهذه الصور . والذى أعلمه من علم النفس أن أول « برق » يرق فى النفس وينطبع فيها هو حقيقة « السبية » التى تقبها الطفل ويتحرك لها فيه حركة « منعكسة » آلية عندما تلقى أمه ثديها ، فيجد أثر أو اضحاً لذلك التحريك تنفع له أعصاب الجوع والشبع وكذلك عند ما يصل إلى عينه أو أذنه أول شعاع ضوئى أو أول صوت فيجد له أثرأ فى حساسية بصره أو سمعه ، ثم لا تلبث الآثار المطردة « الأسباب » أن تتلاحق على مجمع حواسه حتى تنتج طائفة من الأحكام المطردة المبنية على الانفعالات المطردة التى يجدها فى حواسه وفيما وراءها

إطلاق « سر الإعجاز » لأن الحكم بتفضيل القرآن للتصوير كأداة فى التعبير يقتضى الاعتماد على « الإحصاء » وظهور نتيجته بكثرة عددية .. فهل إذا أحصينا طرق التعبير فى القرآن نجد ما قرره المؤلف يحظى بالكثرة العددية ؟

إنى أترك له أن يستعرض صفحات القرآن ، فيوجد أن التصوير الفنى أداة واحدة من أدوات التعبير الكثيرة فى القرآن ، وليست هى الغالبة ولا الكثيرة .

فتارة يعبر عن المعنى المراد بالتعبير التكاملى والمعنى واللفظ ، والذى يستخدم الألفاظ الوضعية وحدها ، وتارة يستعمل لفظاً واحداً من غير أسرة الألفاظ التى فى الجملة ليحرك به الخيال ويلبس الحس لسا رقيقاً ، وتارة تكون ألفاظ الحقيقة وملابس الخيال متساوية ، وتارة تكون ملابس التصوير وإثارة الخيال هى الغالبة ، وتارة تكون هى الكل ، ومع ذلك يحتفظ القرآن فى كل أولئك بأسلوبه التفرد وسر إعجازه ؛ فليس التصوير الفنى وحده هو سر الإعجاز فى تعبيره كما يرى المؤلف الصديق .

وحدث سر الإعجاز حديث شغل الباحثين فى القرآن من قديم ، ولا يزال يشغلهم للآن ، وسيظل يشغلهم أبداً الدهر ، ولن يصلوا إليه « ويدركوه » وقد « أزله » الذى يعلم السر فى السموات والأرض » ؛ لأننا نستطيع فى اليوم الذى « نصل » فيه إلى إدراك سر الإعجاز فى تعبير القرآن أن نستخدمه فى صنع كلام معجز ... وحينئذ لا يكون معجزاً ... ما دام مفتاحه بأيدينا وفى طوق صنعتنا .

فالمعجز من أمور الحياة هو ما لا يمكن الوصول إلى سره واستخدامه . ونحن نجد فى موارث أرباب البيان الرفيع فى كل لغة استخدام التصوير الفنى للتعبير عن « المعانى الزمنية والحالات النفسية والحادث المحسوس والشهد المنظور والنموذج الإنسانى والطبيعة البشرية » إلى آخر ما قرره المؤلف من الحالات والسمات والمواقف التى رأى القرآن يعبر عنها على قاعدة التصوير التى تجعل « المستمعين نظارة » فلم تفلت هاتان الكلمتان من قلم المؤلف الواعى ، ولو لم يحاول أن يجعل قضية كتابه التى عنوانها « قاعدة ومذهباً مقروراً وخطة موحدة وخصيصة شاملة » بفضلها أسلوب القرآن أو بالأحرى تعبيره ، إذا لجأ المعنى الذى أراد خالياً من هذا التعميم ، ولكان موضوعه كما يجده عنوان الكتاب هو

وضميرهم؟ أليس بالهناكة العقلية التي كشفت عن عقولهم ضباب الوثنية القديم، وأدركوا بها الحق الأول بالذهن والحكم، ثم أخذوا أوجدانهم من العقيدة القديمة وأحلوا محلها العقيدة الجديدة؟ والوثنيات مجد في منطق الوجدان وحده مدداً متصلاً لها بالانطلاق وراء الرموز والتهاويل والإثارات الفنية التي هي باب الوجدان... وقد افتخر «طاعور» واحتج للوثنية بأنها مجال طيب لرق الفنون... ولاشك أن هذا احتجاجٌ مقلٌّ وجداني لا يتصل بسبب كريم بالحق والعقل والكرامة الإنسانية والمصلحة الاجتماعية. فالقول بأن منطقة الدين هي الوجدان وحده قول غير إسلامي. أخذهُ المسلمون المحدثون عن الفكرين غير المسلمين الذين لم يعرفوا الأساس الأول للإسلام والدين عامة، والذين وجدوا في أديانهم أسساً يابها العقل والمنطق، ووجدوا الدين في حد ذاته كفاية نفسية لا بد منها، فأرادوا أن يجمعوا بين الدين والعقل، فزعموا أن لكل منهما منطقة قد يناقض ما في إحداها ما في الأخرى ولا ضير! أما الإسلام فأساسه أن إله القرآن هو الإله الذي وصفته الطبيعة ووجهت العقل إليه؛ واعتمدت في هذا التوجيه على المحاكات العقلية كأساس أول وعلى المحاكات الوجدانية البنية على هذا الأساس، وقد استخدم القرآن في سبيل ذلك كله البيان المشرق الجميل البارِع المجز في تمييزه وأسلوبه. ولم يقصر خطابه على طائفة واحدة معينة هم طائفة الذين ارتفعوا عن المستوى العام للناس واحتكت عقولهم بما وراء سطح الحياة وما وراء البدهة والحس من عوالم الفروض والصور الطليقة من قيود الحياة الظاهرة، بل خاطب الناس بالقدر المشترك بينهم جميعاً وخاطب هذه الطائفة الممتازة في بعض معارضه كما خاطب البتة القاصرين في البعض الآخر.

والقرآن يفرض الفكر ميزاناً قائماً بذاته مستقلاً عن الإنسان ثم يعجبه مما يراه في الوجود، كأنه زائر غريب عن الحياة دخل إليها من عالم آخر وهو بكل وعيه، ولا شك أن الفكر بجميع قواه حيناً يدخل إلى الوجود كأنه غريب عنه يجب غاية العجب من بدائعه ويحكم الحكم الجازم بأنه لبارئ واحد. وليس هنا مجال تفصيل هذا، وقد سبق أن عالناه في بعض البحوث.

فالوقوف الأول من السكون والإيمان بربه الواحد، موقف «جزم» بالنعن والحكم المقل. إذ أننا نشعر ونحس أننا

وهذا ما يقرره القرآن نفسه بقوله: «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» فمتى يصل النشئ إلى ترك مرحلة ذهول الطفولة وإلى إدراك الكون كله كوحدة، لا يتجه بانفعال وجداني إلى السبب الأكبر للكون لأن ذلك الوجدان لم يوجد بعد، وإنما يتجه إليه بحكمه الذهني الذي يركب قضية ذهنية منطقية في خفاء وبدون ألفاظ، يحكم بها بأن لهذا الكون سبباً وقدره ومشيئة تدبره... وهي التي أدخلت الإنسان إلى الدنيا العجيبة وتخرجه منها. ولن يفعل لهذا وجدانه «بالدين» إلا إذا صح لديه هذا الحكم. فإن لم يصح لديه أن لهذا الكون عقلاً يدبره قلن يفعل وجدانه لعقيدة دينية إلا تحت تأثير الخوف والقصور والهيبة أمام المجهول. وليست هذه مواقف الإيمان الصحيح المستبصر الثابت الذي لا يتزعزع، وإنما هي مواقف الإيمان الأعمى المقلقل الحائر المستند للقلب، كما هو الحال في أكثر الذين لا يأخذون الدين بالفكر عند ابتداء صحوهم من ذهول الطفولة. فالمقل أو الحكم أو «الذهن» ياصدق قطب، هو صاحب هذا الوضع الأول من النفس، ينتج لها تلك النتيجة الأولية التي تجعلها تفعل بوجدانها أفعال الإيمان. وهو الجزء «المتلبور» في جميع النفوس - والوجدان جزء مائع - وهو الحكم الذي يكاد يكون من عالم الأرقام التي تنتج نتائج واحدة بقوانينها الواحدة.

ولن يضيره أن يكون مختلفاً في الناس اختلافاً ما. فكذلك الوجدان مختلف.

ونحن في سبيل البحث عن حجة الله على الناس جميعاً. ولن تكون هذه الحجة في أغلب الأمر إلا عن طريق العقل والذهن السقي الذي يحاكن الله إليه دائماً في الحياة وفي القرآن، ويردد اسمه دائماً؛ ويلمنا ويقرّ عنا بأننا لا تفكر ولا نقول ولا نتدبر ولا نتذكر ولا نتخذ أسباب الوقاية كما يوجبها العقل..

نعم إن الوطن النهائي للعقيدة الحارة هو الضمير والوجدان، ولكن بعد أن تمر من العقل أولاً ويحكم بوجوب سكنائها في الوجدان لتستمد من حرارته قوة الاندفاع والعمل للدين.

وقد كان الوثنيون الذين أنزل إليهم القرآن يمتدنون عقيدة في «وجدانهم» ويتمصبون لها ويصدرون عنها في حياتهم، لأن أذهانهم كانت محكم بصحتها. فبإذا زعزعها القرآن في وجدانهم

الكان الذى دخل إليه ويتعرف إلى صاحبه ويبحث عن شئونه حينما ساعدت الوسائل .

غير أنهم يجب لكي يضمنوا الحياة العملية في الأرض والألفة العقلية ألا يشردوا ويحملوا عقولهم فوق ما تطيق ، ولا ينسوا أن الإله الحكيم الذى وضعهم هكذا قاصرين عن إدراك كثير من الأمور ، وعن إدراك المبدأ والنتهى إدراكاً كاملاً يشتهون ويتطلعون ، إنما فعل ذلك لحكمة بالغة هو يعلمها ، فيجب أن يلتزموا حدود « الضيافة » الموقفة في هذه الحياة . ولا شك يكون لهذا الالتزام ما بعده من التناسق بين الفكر والعمل والألفة العقلية . وما كان للقرآن أن يكون على أسلوب تفكيرهم الخاص وهو قد جاء ميسر الذكر للناس جميعاً .

ولكنه مكن هؤلاء العقليين والفلسفيين أن يؤلفوا من معانيه التى تحت « سطحه التيميرى » قضايا ذهنية يستطيعون أن يستخدموها في أسلوبهم الخاص . فهو قد ساق قضية عقلية عظيمة بأسلوب بسيط ميسر للناس جميعاً حينما قال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله افسدنا » ؟ وترك للعقليين أن يبينوا كيف يكون هذا الفساد حينما يفرض التعدد في الآلهة ...

وحينما قال : « ما اتخذ الله من ولد » ، وما كان معه من إله ، إذن لنهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » . أرسل هذه القضايا هكذا واضحة مبسرة ، وترك للعقل أن يتحاكم إلى الكون ويستقرى أحوال الأشياء إذا كانت بين والد ومولود وإذا كانت بيد واحدة ، وإذا كانت بأيد متعددة ، وعماد الحكم في ذلك هو الحركة العقلية الآخذة من كل مورد من موارد النفس والكون وكل قوة من قواها لتصل إلى الحكم .

والمتبع للقرآن يرى أن وراء « سطحه التيميرى » السهل اليسر ، عالماً يروج بالسائل العقلية والبدئية والفرضية تضع العقل البشرى في موضع أميل كريم كأنه هو وحدة القياس في كل العالم لا في الأرض وحدها .

...

وأخيراً أشكر المؤلف الصديق على هديته التى جعلتني أعيش فترات في جو فني بديع ، فيه الفكر والبيان ، وحسن الترتيب والتبويب ، ولطف المدخل إلى ما تناوله من موضوعات .

عبد النعم همدان

واقفون إزاء « معلومات » تنتج العلم والحكم الضرورى البديهي والمركب .

وهو موقف ديني سابق على مجيء النبوات والرسالات ، لأنها تعتمد عليه في التدليل على قضايها والتحاكم إليه . فالدين عقلى طبيعى في الإيمان بأصله الأول وهو الله الواحد .

ولقد وجدنا كل جماعة دينية تؤمن بما عندها بوجودها . فهل لهذا وزن إلا عند ما يدركون شاكلة الحق الذى عند الله والذى يوحى به الكون ؟ وهل يدرك الحق إلا بقوة « الحكم » التى هي موضع الحساسية بالعدالة والقوانين الطبيعية التى استمددنا منها حكمنا ، والتى لا تنظر إلى الصور والإطارات وإنما تنظر إلى ملب الأمور ؟

والقرآن لم يعم بأن يرد على منكرو وجود الله . وكأنه لم يفرض وجودهم . أو كأنه نظر إليهم على أنهم خارجون عن نطاق العقل والبداية ، ولذلك لم يحاجهم ولم يوجه إليهم قولاً يشعر بأن لهم وزناً . وإنما وجه حديثه الأكثر إلى الشركين مع الله آلهة أخرى ، الذين من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها ... وخلموا صفاتها على كثير من المخلوقات ، فهؤلاء لديهم الإيمان الوجداني ولكنه إيمان مدخول منكوس يحتاج في تعديله وإقامته في نصابه الطبيعى إلى منطق عقلى يستعرض الكون ويستقرئ ويستنتج منه أنه لإله واحد .

فالحديث مع هؤلاء الشركين لا يستلزم إلا الإيقاظ إلى الكون وأعاجيبه الموحية أنه من صنعة يد واحدة ... وهذا ما فعله القرآن . أما الذين التمسوا وراء حديث الإيمان الفطرى مناطق يتحدثون فيها عن ذات الله وصفاته والكون ومبدئ وجوده وعلاقته بالله وصفاته ، إلى آخر مباحث علم الكلام والفلسفة فهؤلاء لا يدعون أنهم يؤسسون عقيدة للجمهور بكلامهم ، وإنما يريدون أن يصلوا بين هذا الكون المادى المجيب وبين ما قبله وما بعده . وموقفهم هذا موقف طبيعى ، هو نتيجة للمعجب الذى يرونه في هذا الكون ، ونتيجة لشعورهم بأن عقولهم وحكمهم يريد أن يتصل بالغاز الحياة وما قبلها وما بعدها . فإنهم يشعرون أنهم غرباء ، في هذا الكون المادى ذى القوى الموزونة والطلعة الجبارة المثيرة للفكر أليماً ثورية . ولا بد للغريب أن يبحث ويتقصى ويتعرف